قانصوه الغورى

سلطان مصر الشهيد

للأستاذ محمود رزق سليم

الفصل الرابع

أقوال وأحاديث

الشاعر : يا مولانا الشيخ ! ليس فى هذا الحديث غيبة ، وإنما هو نقد مباح ومبادلة رأى . وإذا أصررت على أن فيه غيبة ، فلا حيلة لنا فى إصرارك ! وكيف يستطيع قوم يرون الأحداث من حولهم تترى ، وتمتلئ صدورهم بالحنق عليها، وتفيض أذهانهم بضروب الرأى فيها ، ثم لا يتكاموتن ؟ وفى جلسة متواضعة كجلستنا ؟ اللهم إن هذه هى النفلة الكاملة ، فإذا ارتضيتها لنفسك ، فنرجو الله أن يعافينا منها

ولى الدين : أيها الشويعر المتعالم ! هل النقد لا يتناول إلا العيوب فينشرها ، والنقائص فيذكرها، أوليس للناس حسنات تستحق منكم الثناء والاقتداء ؟

الشاعر : أنى لنا ذكر الحسنات ، وقد طغت عليها السيئات؟ إن هؤلاء الجراكسة قد ملأوا فجاج هذا الوادى فسادا ، وأصبحوا كالجمر ضررها أكبر من نفعها

انظروا . . لقد بلغنى منذ أمد قريب أن أحد وقاع المماليك الجلبان نزل إلى سوق الرقيق لبعض شأنه ، فاختلف مع الدلال لأمر من الأمور ، فاستعر بينهما الجدال ، وعلا الضجيج ، فما كان من المملوك إلا أن هوى على رأس التاجر بقبقاب ... فوقع على الأرض مترديا ، وحمل إلى بيته لا حراك به ، ثم مات بعد زمن قريب ... فاذا جرى لهذا المملوك ؟ لم تنقطع فى حادثته شاتان !

ثم ... أتعرفون الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء القدمين . . ؟ لقد ضرب أحد النوتية ضربا مبرحا حتى مات بين يديه . . ثم : لا هم السلطان بمحادثته ، فتثاقل عنه ، مراعاة للأمير أرزمك ، وقيل إنه أومز إليه بأن يرضى أبناء قتيله بشئ من المال

التاجر : لقد سلط الله بعض هذه الطائفة على بعض،ليأخذهم بظلمهم ، وفداحة ضرائبهم على الرعية ، وسرفهم فى الأموال ، وسفههم

المتوفى : لعلكم تعرفون أن الأتابكى قيت ، كان يأمر بالسلطنة ، ويتطلع إلى منصبها . فكان يراسل الأمراء الطامعين لينضموا إلى صفوفه أمثال سيباى نائب حلب ، ودولات باى نائب طرابلس ، ذلك الذى فر مرة إلى ملك العثمانيين ، ليحرضه على سلطنة مصر ومحتلكاتها . . وبذلك أفسد الأتابكى قيت عليدا غير قليل من الأمراء . وكادت مؤامراته تنجح ، لولا أن عيون الغورى يقظى ... فدهمه وعاجله بالقبض عليه ، وواجهه بأدلة قاطعة ، على إدانته ، فلم يستطع دحضها .. وهكذا أدى به مطاف أطماعه إلى سجن الإسكندرية ينتظر فى ظلماته مصيره المحتوم . . ثم أقام السلطان مكانه فى الأتابكية عدوه اللدود الأمير قرقماس

الشيخ ولى الدين : كفى كفى . ! ألم يعد يحلو لكم ، ولا يلذ لألسنتكم ، ولا تتناقلون فى سمركم إلا أخبار الغدر وذكريات الاثام . . ولا تتلمسون للناس حسنة تذكرونهم بها ، ولا يدا تشكرونهم عليها ؟ ألا كم لسلطاننا الغورى من حسنات . . وكم له من أيادى بيضاء

الشاعر : « نافرأفاه » : ألا يتفضل مولانا الشيخ يذكر حسنة من حسناته أو يداً من أياديه ؟

الشيخ ولى الدين : ألم يأمر بجميع فقراء القاهرة فى يوم عاشوراء ؟ فاجتمعوا عند سلم المدرج ، ثم نزل إليهم بنفسه ، وهو يمتطى فرسه ، وفرق عليهم الدنانير بيده ؟ لقد قيل إنه أعطى كل فقير منهم دينارا أشرفيا من الذهب

الشاعر : نعم ! نذكر ذلك ولا ننساه . . كما نذكر أيضاً أن ثلاثة من هؤلاء الساكين قد قتلوا فى أثناء ذلك !

الشيخ : اتق الله ياشهاب الدين ، ولا تلبس الحق ثوب الباطل . فقد قتلهم الزحام ، ولم يقتلهم السلطان

الشاعر : ولهذا ، صمم السلطان على عدم النزول إلى الفقراء مرة أخرى ... حتى يئسوا من بره . . وحتى قال قائلهم :

سل الله ربك من فضله إذا عرضت حاجة مقلقه
ولا تسأل الترك فى حاجة فأعينهم أعين ضيقه ...

الشيخ : إن السلطان لكثير البر ، وهو لا يفتأ يحسن إلى الفقراء ، وقد أمر فى أول رمضان أن تحمل إلى القلعة رءوس الضأن وأوعية الدقيق والخبز والسكر ، وأن تعرض فى ميدان القلعة على أنظاره ، كما جرت العادة بذلك ، بعد أن تزف فى شوارع القاهرة على رءوس الأشهاد وإعلاناً للناس بها ، وحولها المحتسب ووكيل بيت المال . . ثم وزعت على الفقراء وأهدى منها إلى الأصدقاء

الشاعر : ألا قاتل الله حب الظهور فهو يكلف المرء مالا يطيق ، وإذا كانت للسلطان نفس برة ويد رحيمة محسنة ، فلماذا قطع منذ أمد « جوامك » (رواتب) كثير من الأيتام والنساء والصبية المستحقين ، الذين تعودوا أن يستعينوا بها ، ورتبها لهم الملوك السابقون . ؟

الشيخ : يالك من خبيث ما كسر ، لا تنفق عنده يد ، ولا تصلح لديه معذرة ! لقد كانت خزائن السلطان أول أمره خاوية ، وكان فى حاجة قصوى إلى المال . فكان لابد له من الاقتصاد فى الإنفاق . فلما امتلأت يده وأخصبت خزائنه أعاد سيرة المحسنين من الملوك ، وعهد البررة من السلاطين

ومع ذلك ! ألم يأمر بإبطال النادبات النائحات فى المآتم ، والذين يدقون الدفوف خلف الموتى ... ألا تذكر حينما تفشى الوباء فى القاهرة ، وفتك بالناس فتكه الذريع ، كيف قام القاهريون يندبون موتاهم ، وامتلأت حارات المدينة وأزقتها نواحاً وعويلا كأنما اشتعلت النيران فى ربوعها

ألم يأمر السلطان بتحريم شرب الخمر وكسر جرارها ومصادرتها فى بيوتها وضبط بائعيها والضرب على يد تجارها ، وأمر بكبس بيوت الحشيشة وإحراقها ، وإقفال دور « البوزة » وإراقتها

ماذا تريد يا شهاب الدين أن يفعل السلاطين ؟ لعل فى إراقة الخمر وكبس الحشيشة ما يؤلمك ويضنيك ؟ ولهذا فأنت ساخط

الشاعر : إنه لا يؤلمنى ذلك ولا يضنينى إلا بمقدار ما آلم وأضنى سلفنا الرجال الشاعر الأديب إبراهيم المعمار ... فقد قيل إن سلطان عصره الملك الأشرف شعبان بن حسين ، حفيد قلاوون ، حرم الخمر والحشيشة وأهدر كرامتهما . . فقال المعمار فى ذلك هذه المواليا الفكاهية :

يامن على الخمر أنكر غاية النكران
لا تمنع القس يملا الدن والمطران
وأمر ببيع الحشيشة تكتسب أجران
وتغتم دعوة المخمول والسكران

الشيخ : قاتله الله ! وقبحه من شاعر زجال . . ! هكذا أنتم يا معشر المتشاعرين . . ! لا يلذ لكم مقام إلا بين بؤرة وبيئة ، وكأس مليئة . ومن شاء منكم الشهرة ، فليس أمامه من سبيل إليها إلا أن يمجن كما يشاء ، أو يهجو أحد العظماء

قل لى يا خليفة المعمار ! لماذا رسم السلطان للأمراء بالغاء نقبائهم الذين كان أرباب المظالم يفدون عليهم للفصل فى مظالمهم ؟ ورسم أن أحدا لا يشكو ، ولا يرفع قصة — قضية — إلا عن طريق قضاة الشرع ؟ أليس فى ذلك حماية للناس ورعاية لهم من جشع الأمراء والنقباء ، وجورهم . . أو ليس فى ذلك دعوة إلى أن تسود العدالة ، وترعى أحكام الشرع الشريف

الشاعر : هذا حسن ! وقد رسم السلطان بذلك كله ، حينما راعه أن الوباء استحر فى الناس ، وأعمل فيهم سيف فتكه وسفكه . فرأى أن يتقرب إلى الله بتلك القربى ، لعل الله يخفف بها الكرب عن المكروبين . . . ولكن لولا الوباء لما اتجهت فطنة السلطان إلى هذه المكرمة ... وعما قريب سترى أن الأمر عاد إلى ما كان عليه

فقال علم الدين الخياط : إننى أود من الأعماق أن يفئ الناس إلى أحكام الدين ، ويرعوا العدالة ، ويوكل أمر القضاء إلى قضاة الشرع دون سواهم . وأعجب كيف دخل حاجب الحجاب ، وغيره من الأمراء ، إلى باب القضاء ، وأصبحوا من الحاكمين بين الناس فى مظالمهم وخصوماتهم . إنهم كثيرا ما يجنحون إلى الهوى ، ويحكمون الغرض ، ويتذرعون بمناصبهم لابتزاز أموال الناس بالباطل ... فإذا وقف السلطان حاجزا حصينا دون غاياتهم الجائرة وعبثهم الظالم ، فوقفته تلك ، يد بيضاء مشكورة ...

الشيخ : أجل ! أيها الأصدقاء ! تلك يد بيضاء مشكورة ، وكم للسلطان من أيادى ، وكم أحيا من عادات وتقاليد شعبية ، عفاها الزمان ودرست معالمها منذ أمد طويل .

إليكم مثلا دوران المحمل فى رجب ، ولعب الرماحة فى حفلة دورانه . تلك عادة جميلة دارسة . وتقليد بائد محبوب لم تنعم به عيون القاهريين منذ سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة هجرية ، أيام حكم الملك الظاهر خشقدم . لقد كان لهم فى تلك العادة متعة وترويح ، وللقاهرة عندها زينة وتبرج

وها نحن أولاء نرى سلطاننا الغورى يأمر بتدريب الرماحة من جديد ، وبدوران المحمل فى رجب . ورجعت هذه العادة بذلك تقليدا جديدا من تقاليد بلادنا ...

أنسيتم فى سنة تسع وتسعمائة هجرية ، ليلة أن بات الغورى بالقصر ، وأحرقت إحراقة النفط بالرملة ... وفى الصباح . جلس السلطان فى شرف مطل على الرملة ، وتقدم إليه الرماحة فى ثيابهم الحريرية الحمراء ، ومعهم رماحهم مشروعة فى أيمانهم ... لقد قاموا بألعابهم البهلوانية الجميلة الخلابة ، ثم طيف بالكسوة الشريفة والمحمل مرة فى بكرة النهار ، ومرة بعد الظهر . واجتمع الناس للتفرج به ، من كل حدب وصوب ، وافدين من القاهرة والخانكاة وبلبيس ومن نواحى شتى . حينذاك كنتم ترون الفرح يغشى بأمواجه المتدافقة جموع الناس . تلك الجموع المتراصة للضاحكة . وقد ألقى كل امرئ منهم همه جانبا ، وأراح كاهله من عبء أتراحه ، ونسى كل أثقال الحياة إلا هذه الفرصة الماثلة .. والناس ما بين حدث يافع ، وغلامة ناهد مخدرة ، ونصف عوان مختمرة ، وعجوز فانية مودعة . وبين شاب شارخ لدن ، وشيخ هم متداعى الأوصال ، وبين سيد قوم ، وشجاع همام صنديد ، وجبان نكس رعديد ...

لقد سرت حينذاك بين الجميع نشوة واحدة ، وانتظمتهم سكرة فرح مشتركة ، حتى أخذوا يرقصون وينشدون قائلين :

بيع اللحاف والطراحه حتى أرى ذى الرماحه
بيع لى لحاف ذى المحمل حتى أرى شكل المحمل

الشاعر : لله درك ياولى الدين ! لقد أذكيت فى نفسى عوامل الشعر ، وأوقدت الشاعرية ، وأشعلت فى خاطرى جذوة القريض بهذه الأوصاف والمواقف العاطفية ... وهكذا نحن معشر الشعراء .. ! نراع بكل مظهر من مظاهر العاطفية ، فردية كانت أم جماعية . . ويطوح بنا الخيال حينذاك فى ميادينه الواسعة . وسنابله الحالمة . فنعيش لحظات كالمحمومين ...

أما أنت وأمثالك يامعشر الفقهاء ..! فلكم من هذه المظاهر ما فيها من طعام وشراب ، مما لذ وطاب . . . ولله در الفاطميين الذين ابتدعوا لنا ولأسلافنا أمثال هذه المواسم ، ليشغلوا أذهاننا وبطوننا عن سياستهم الحرقاء ، وعن تقصيها ونقدها ... وليبهروا أنظار العامة منا ببهارج لا طائل تحتها ، ولا غنية فيها . . ولله كذلك السلطان الملك الظاهر بيبرس ، أول من أمر بخروج المحمل ..!

يامولانا الشيخ ! أنا لا أهتم بهذه الخزعبلات والترهات ، ولا أنظر إليها نظرة المحلل أو المحرم ، ولكنى أهتم كل الاهتمام بمن حول بلادنا من الأعداء ، وما بين جدرانها من الجبناء . .

أتستطيع أن تذكر لى ماذا صنع الغورى لحماية الممتلكات المصرية ؟

المستوفى : الذى أعلمه أن السلطان حريص كل الحرص على هذه الممتلكات جاد فى الضرب على أيدى العابثين بها . حذر على بقاء نفوذه فى الأصقاع النائية

لقد أشخص إلى الأقطار الحجازية تجريدة لتأديب العرب الخارجين عليه فيها . كما بعث حملة قوية إلى شواطئ بلاد الهند للقضاء على عبث الفرنجة هناك بسواحل الممتلكات المصرية ، وعلى سلبهم أموال التجار . . وربما كان لسفر ثغرى بردى الترجمان إلى بلاد الفرنجة للقاء بطركهم ، صلة بذلك . ولعل السلطان يهدد هذا البطرك بالقضاء على النصارى ببلادنا ، إن لم يدفع كيد أتباعه عن سواحلنا ومتاجرنا ..

الشاعر : هناك دولة بنى عثمان . دولة بنى عثمان . . . ! لقد كان بينها وبين سلاطين مصر السابقين مناوشات ومحاربات . وقد قوى اليوم أمرها ، واشتدت مرتها ، وفتل ساعدها . ولا أدرى ماذا تخبئه الأقدار فى جعبتها لبلادنا العزيزة ، على يد هذه الدولة الماكرة الخبيثة . . .

الشيخ ولى الدين : مهما يكن من شئ ، فهم مسلمون ، والجراكسة مسلمون .. والله يولى من المسلمين عليها من يصلح ..

الشاعر : هذه يامولانا الشيخ ! نغمة القلة ووحى الضعف والاستسلام . ألا تحفظ قول الله سبحانه وتعالى : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون » صدق الله العظيم

* * *

إلى هنا سمع صوت السحر ، وأخذ يدق طبله ويردد أناشيده وقد أوقدت المصابيح إشعارا بدخول وقت السحور . وارتفع أذان المؤذن ينادى للسحور ، ويقول : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا »

فأفاق القوم من جدلهم وتنحنح الشيخ ولى الدين ، وحوقل . . ثم قال ياسما : « أتحبون أن ننقض ؟ . أو نتناول بلغة هنا . . . ؟ والتفصيل على صاحبنا علم الدين . . ؟

فقال علم الدين الخياط ضاحكا : لقد نزلت على رأيك يا مولانا قبل أن تفصح به ، وأعددت لك المدة لنتناول جميعاً سحورنا هنا ، ثم نصلى الفجر بإمامتك فى مسجد السلطان

فأخذ القوم يلهجون بالثناء الطيب عليه

(للقصة بقية)

محمود رزق سليم
الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية

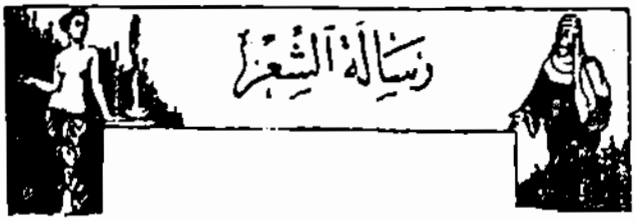

النور الحائر

للشاعر الشاب محمد مفتاح الفيتورى

فى ليلة من ليالى التى احترقت ... فيها الحياة . . ونام الناى بالنغم
مددت كفى نحو الله مبتهلا ... والنار مل عدى . . واليأس مل ئفى :
يارب . . يارب هذا الكون أجمعه ... الخير والشر . . والأنوار والظلم
يا أيها الأزل المحجوب بالقدم ... يا أيها الأبد المستور بالعدم . .
يا أيها القدر العالى الذى سمدت ... به الطغاة . . وشالت كفة القيم
إنى شقى بأحلامى . . بقلقى ... بفطرتى . . بخيالى الجامح النهم
إنى غريب . . غريب من عوالمهم ... وغربة الروح تنسى قربة الرحم
إنى على الأرض عيسى فى تعاسته ... ضحية الكافرين : الحقد والصمم
فامدد يد القوة العلياء ترفعنى ... إلى سمواتك القدسية العصم
حتى يراجع هذا النور منبعه ... إنى ابن شمسك لا ابن الطين والسدم
فأشرقت فوق وجهى صفحة كتبت ... بأحرف النور روحانية الكلم
لمتها لمحة الإيمان مرتعشا ... ورحت أقرأ فيها حكمة الحكم
« إن السموات لا تعطى حقائقها ... إلا لكل نبى غير متهم . . ! »

محمد مفتاح الفيتورى

المنظار المسروق

للأستاذ عبد المعطى حجازى

تفكر فى غدره واستتر ... وراح وراءه يقفو الأثر
وفى زحمة العيد مال النبى ... على وظل يطيل النظر
وأحسن بى الظن من جهله ... فخال بأنى كنز العمر
لقد سرق النذل نظارتى ... وعاد قريرا بهذا الظفر
ولو علم الخائب البائرى ... حقيقة مغنمه لانتحر
فليس بها من نفيس يباع ... إذا ما رجا طامع وانتظر
وفى السوق لا تشترى بالفلوس ، ولو جن باثمها أو كفر

* * *

ولكنها لى شمس النهار ... ومنظر الزهور ونور القمر
فدائى إما أضر الطوى ... وربى إما اللهيب استعر
ومؤنسى إذ يعز الأنيس ... ورارتى حين يحلو السمر
ومشكاة ليلى إذا ماد جا ... ومرمى أمانى وقت الخطر
أجوز بها كل عات عصى ... واغزو بها كل صعب عسر
وأمشى بها فى ظلام السطور ... فيسعفنى نورها المدخر
وأعلو إلى وكنات النسور ... وأهوى إلى مستقر الدرر